مشاكل الخدمة الاجتماعية فى مصر(*)

بقلم الأستاذ فتح الله محمد المرصفى
مفتش التعليم بمصلحة السجون

سيداتى وسادتى

شرفتنى وزارة الشؤون الاجتماعية بدعوة خاصة ليكون لى حظ المساهمة فى التحدث اليكم عن مشكلاتنا الاجتماعية. وما سوف نتناوله فى أحاديثنا المقبلة بنوع خاص مشكلة إجرام وتشرد الأحداث، أسبابها وعواملها وطرائق علاجها والوقاية منها .

إذ من المعلوم أنه كلما اشتد ألم الانسان من العلة كلما نشط الى طلب الشفاء والبحث عن أسبابه، وهكذا الحال فى كل من العلل والأدواء الاجتماعية، إذ كلما كثرت أضرارها ووضحت عيوبها وزاد التألم منها تحقق دنو الإصلاح ورغب الناس فى أفضل الأحوال وسعوا الى تحقيق رغباتهم .

مشاكلنا اليوم :

و إنه ليحيط بالأمة المصرية — كغيرها من أمم العالم — معضلات كبرى اجتماعية أخصها : الثالوث المخيف، الفقر والمرض والجهل ومما لها من أثر فى حياتنا القومية ومركز الأمة من العالم المتمدين. ومن نتائج هذه المشكلات الخطيرة مشكلة إصلاح القرية ورفع مستوى حياة الفلاح والعامل ومشكلة درء خطر الجريمة و إصلاح المجرمين، هذه وغيرها من مشاكلنا الاجتماعية والتى زادتها الحرب الأوروبية الماضية تعقيدا والحرب العالمية العظمى شرا مستطيرا، وأنه مع إهمال الأخذ فى أسباب علاجها والتغلب عليها وعلى ما يحيط بها من ظروف لا شك أنها ستجعل حل كل مشكلة وما يتفرع منها عسيرا إلا إذا هب القوم عاملين ملبين صوت الرأى العام ، فتتعاون الجماعات وتتضافر الهيئات والحكومة متجهة صوب الإصلاح الاجتماعى المنشود. فمشاكلنا على ما هى عليه و إن كانت تبدو فى ظاهرها مستعصية الحل، إلا أنها أمام الأيدى المتضافرة والإيمان والعقيدة الخالصة والضمير الاجتماعى، حينئذ يسهل كل ما استعصى من معضلات وما أشكل من خدمات فى الميادين الاجتماعية .

(*) نص الحديث الذى أذيع فى البرنامج الثقافى لاذاعات الوزارة فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٥

المثل الأعلى :

ولئن جاز لنا أن نسجل هنا ما تتوج به هذا العصر المجيد من إحساس فياض غمر أفراد الشعب، وبخاصة الفقراء فى شخص الجمعيات الخيرية والمنشآت الإنسانية من تبرعات ملكية ومبرات يقصر دونها الاحصاء فلأن مليكنا الصالح المحبوب فاروق الأول حفظه الله، قد ضرب المثل العليا فى كل مناسبة مما يكنه من عطف ملكى سام لخير الإنسانية فى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية فتسارع القوم والعاملون على الإصلاح الاجتماعى إلى إقامة المؤسسات ومأوى الطفولة وحمايتها، وتخفيف ويلات الفقراء، ما سوف يكون له أبلغ الأثر فى حياة أفراد الشعب من المعوزين والبائسين وطبقات الأمة على السواء خشية ما قد يصيبها من شر عاجل أو آجل .

إن تاريخ الإصلاح الاجتماعى ليسجل بالتقدير جهود وزارة الشؤون فى مختلف ميادين الخدمة الاجتماعية ، إذ انتقلت بها من عالم الحلم والخيال والبحث إلى عالم الحقيقة والجد والعمل ، ذلك ما تمس اليه حاجة البلاد الاجتماعية وجوهر الإصلاح القومى المنشود لخير مصر والمصريين بل والعالم العربى على السواء .

الأسرة المصرية فى مقدمة مشاكلنا الاجتماعية :

وفى يقينى أن فى مقدمة العلل والأمراض الاجتماعية فى المجتمع المصرى ، بل من أوليات مشاكلنا الاجتماعية ، ضعف المستوى الخلقى فى الأسرة . وأن إغفاله اليوم دون تشريع أمر له نتائجه السيئة وعامل قوى فى انتشار الجريمة ومضاعفاتها وقد تنبهت الأمم من العالم المتمدين الى وضع تشريع يحفظ كيان الأسرة فيها ويحمى المجتمع من عوامل الجريمة وفوضى العابثين بالأمن، ونحن فى مصر أشد ما تكون حاجة إلى تشريع لإصلاح حال الأسرة ، وإن ما جاء ضمن خطاب العرش للدورة السابقة يحقق مبلغ اهتمام الدولة فى شخص وزارة الشؤون بالمسائل الاجتماعية وإصلاح الأسرة على وجه خاص إذ يقول ما نصه : " كما أن حكومتى تعنى بالمسائل الاجتماعية ، وسيكون أول ما نسعى الى علاجه مسائل الأسرة ، حيث تضع برنامجا شاملا للنهوض بها وتنظيم العلاقة بين أفرادها ، وحماية النشء من التشرد والتسول " وقد كانت مشكلة الأسرة ولا تزال فى مقدمة دوافع المشاكل الاجتماعية الخطيرة الأثر وما ذلك إلا من فوضى الحرية التى ملكت مشاعر أفراد الأسر كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها . ومن القول المأثور: " أن ليست الهيئة الاجتماعية إلا اتساع دائرة الأسرة فإذا خرج الإنسان من أسرته فاسد الأخلاق دخل المدينة فاسد الأخلاق " ولا ريب — عندى — أن الجريمة بين الأطفال من باعث عائلى إلا أنها تنتهى بمشكلة الهيئة الاجتماعية .

مكانة المرأة :

وليس بعزيز على المرأة المصرية بعد ما أصبحت فيه من مكانة فى المجتمع المصرى أن تعمل لإسعاد الأسرة ورفع مستوى الحياة الاجتماعية فيها . ومن أولى بإصلاح حياة الأسرة وشؤونها الاجتماعية من المرأة ؟ تلك التى يقال عنها بحق : إن هزت المهد بيمينها فقد هزت العالم بيسارها . وإنى إذ أهيب فيما ألمع إليه من كلمات وجيزة فلأن هذه العجالة لا تتسع سطورها لما سجله التاريخ القديم والحديث وما اعترف به علماء الاجتماع وأقره النادة والمصلحون وما نصت عليه الشرائع والأديان على اختلافها عن مكانة المرأة من جميع نواحى الحياة . المرأة التى إن أصلحت صلح كل شىء ، وإن أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق.

ولا نكون مغالين — سيداتى وسادتى — أو نذهب بعيدا عن جادة الصواب والحقيقة فيما نقوره عن أخص المشاكل الحيوية والتى تعمل على إضعاف دعامة الأسرة وكيانها وما نراه اليوم من أمور لها خطرها وأهميتها وفى مقدمتها :

ضعف التربية الدينية :

إذ مما لا نزاع فيه أن تعاليم الدين أكبر وازع للنفس من الاسترسال فى نزعتها وأعظم رادع لها عن الجنوح الى اقتراف الآثام واذا ما عاودنا بنظرة نستعرض الماضى القريب نجد أن الآباء والأمهات كانوا يعنون بتربية أبنائهم التربية الدينية لحقة فكان الطفل ينشأ فى بيئة منزلية امتزج الدين بها فينطبع فى نفسه حب الدين وما دعا اليه من فضائل وإن حالنا اليوم غيرها بالأمس فلقد دهمتنا المدنية الحديثة الكاذبة فأغفل الآباء شئون الأبناء فانغمسوا فى حمأة الرذائل والشرور وسولت لهم أنفسهم ارتكاب الجرائم فلئن صار الحدث الصغير مجرما كبيرا فلا تعجبوا فمعظم النار من مستصغر الشرر .

سياسة التربية والتعليم :

وحرى بنا أن نقرر أن التربية المدرسية لم تعد تصلح للتوفيق فيما تدعو اليه نزعات الطفل الطبيعية وحاجياته مع ما تقتضيه رغباته الاجتماعية ، إذ أن سياسة التعليم الأقصى محدودة الاتجاه وهذا ربما كان يصلح للماضى القريب بما كانت عليه الحياة فى أبسط أشكالها إلا أنها لم تعد تصلح لمواجهة وقتنا هذا بما فيه من مناحيه الاجتماعية المعقدة والواجب إذن أن نجعل من أهم أعمالنا فى التربية الحديثة مساعدة الأطفال على مواجهة هذه النزعات وحلها الحل المرضى ، إذ أصبح من المعلوم أن الهمل وصغار المجرمين لم يقترفهم تيار الاجرام إلا لخلوهم مما يحيط بهم من عوامل التربية الخلقية والحياة الصناعية أكثر ما يكونون قد ولدوا مجرمين .

ضعف الحياة الصحية :

كما أن حياة الشعب وسلامة الأجسام واستقامة العقول موكولة الى الحياة الصحية بين أفراد الشعب وحمايته من الأمراض الفتاكة وخاصة الطبقة الفقيرة وهى الهيئة العاملة فى الثروة المصرية وقوة الدفاع وإن ما نراه اليوم من نشاط دائم واهتمام مرعى بما تقوم به الدولة فى شخص وزارة الصحة من كفاح مشكور فى نواحى مختلف الأمراض المتوطنة بيننا لا شك سيكون له أثر فى حياتنا الصحية وفى سلامة العامة من الشعب .

وليس لأحد أن ينكر ما لشعور الهيئات والأفراد مما هو جدير بالخدمات الاجتماعية ففى مقدمة عوامل توجيه الرأى العام الى ما يهمنا أمره من جميع الشؤون الحيوية — الصحف السيارة والمجلات والنشرات على اختلافها — وبقدر ما تكون عنايتها بأداء مهمتها من توجيه الرأى العام يكون تأثيرها وفائدتها على أن الاعتقاد السائد من حيث شعور الهيئات (حتى المتعلمين منا) تجاه العناية بالمشاكل الاجتماعية وتجاه ما كان منها — بنوع خاص — له علاقة بحماية الطفولة ورعايتها أن الحكومة هى الوصى الوحيد والهيئة المسئولة عن كل شىء وعليها تقع وحدها كل المسئولية .

والحق يقال أن الصغير المجرم ينتقم من الهيئة لأن تلك الهيئة لم تنجح فى أن تقابله أو تعترف بما عليه من طبيعة حب النفس والظهور ولو بما تظهر له من الشقشقة والحنان .

ولئن كان الذى يحدو بنا الى إيواء أبناء الملاجىء والعطف عليهم خوفا من تدهورهم فى بيئة الإجرام إن هم أهملوا فإن بينهم وبين اخوانهم الأحداث الحمل وصغار المجرمين لشبها يحدده اليتم والشقاء والبؤس فهم جديرون بعطفنا حريون برعايتنا .

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلق له ... أما تخلت أو أبا مشغولا

سيداتى وسادتى :

إن بيننا من الأطفال الشواذ ومن دل عليهم الاحصاء العام فى الدولة بما يقرب من ١٥٠٠٠ طفل محرومين من كل رعاية وعناية ومن الخطر الفادح إذا ما ضوعف هذا الشذوذ بفساد فى الأخلاق كنزعة الى الاجرام من حيث السرقة أو الحريق أو ما اليه فمن المحتم حجز المصابين بهذه الآفات فى بيوت خاصة بإصلاح الأحلاق وأقرب ما تكون الى مستشفيات منها الى دور الاصلاحيات . وقد تنبهت اليوم وزارة المعارف العمومية الى هذه المشكلة الخطيرة فأخذت فى دراسة المشروعات والأساليب الكفيلة بتحقيق رعاية

وحماية الشواذ من الشعب وسوف يرى الطفل الشاذ من الرعاية والإصلاح ما لقيه أمثاله فى غير بلادنا وما نرجو أن يكون له أكبر الأثر فى محاربة الجريمة والوقاية منها بين طائفة من الأطفال كان اهمالهم — ولا يزال — أشد خطر على المجتمع وعلى أنفسهم .

نداء :

أما وقد استعرضت على مسامع حضراتكم — سيداتى وسادتى — أخص مشاكل الخدمة الاجتماعية قدر ما سمح به الوقت المحدود فإنى لا يسعنى إلا أن أدعو رجال القانون من حضراتكم وعلماء النفس والأطباء من بينكم والمعلمين وعلماء الاجتماع وقادة الرأى العام فيكم وفضليات النساء اللائى كلفن بالخدمة العامة وشئون مصر الاجتماعية وكل من يهمه منا أمر الحالة الخلقية بين أطفالنا أن يكون لهم الأثر العظيم والفضل الأول مما يأتونه من النشاط والمثابرة والمعونة فى تقدم إصلاح حالتنا الاجتماعية حتى يعود لمصر مجدها التليد ورقيها الأدبى والعلمى وتتبوأ مركزها اللائق بكرامتها بين الأمم وفى هذا يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : " لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما " .

وإلى اللقاء من الحديث المقبل والسلام عليكم ورحمة الله ،

جمعية نهضة القرى ومحو الأمية

ورد فى تقرير جمعية نهضة القرى ومحو الأمية بمديرية قنا فى عامها الثالث عشر أن عدد الشعب التى تسير سيرا منظما ٥٦ شعبة يبلغ عدد متطوعيها ٢١٢ قاموا بتعليم ١٢٠٦ من الأميين . وتطالب هذه الشعب الآن بفتح المدارس الالزامية لتلقى فيها الدروس ليلا .

وامتد نشاط الجمعية الى إقامة مهرجانات ثقافية تلقى فيها المحاضرات على الجمهور القنائى وكان لهذه المحاضرات آثارها الملموسة التى شهدت بها الصحف المختلفة مما شجع الجمعية على الاستزادة من مواسمها الثقافية والعمل على نهضة القرية ، وذلك لاشك جهد محمود فى الاصلاح الاجتماعى يسرنا أن نسجله للجمعية .